

التغيرات المادية والثبوت النسبي في البنيان الفوقي الممثل في المفاهيم والعادات والقيم القديمة . وأدى هذا الوضع الى توترات على المستوى النفسي والفكري « (ص ١٥) . ويسوق الباحث نتيجة سريعة ، لا استطاع أن اقطع بصحتها او عدمه ، اذ بالرغم من معقولية السياق الذي أتت فيه فكرته القائلة ان الفلسطينيين نتيجة للتناقض القائم بين رغبتهم في الخلاص من واقع نكبتهم ، وبين ادراكهم العميق لصعوبة تحقيق هذه الرغبة ، تولدت لديهم ظاهرة سلوكية « تتميز بالحباس السريع والاندفاع حتى الغرور لدى كل بارقة أمل في العودة ، وبالخود السريع والانكماش حتى الانطواء ، في اعقاب كل صدمة » (ص ١٦ - ١٧) . لكن الا يمكننا تعميم هذه الفكرة لتشمل مجتمعات اخرى بالإضافة الى المجتمع الفلسطيني !!

ويمكن حصر ثلاث خصائص بنوية للواقع الفلسطيني تتعلق بالوحدة الجغرافية ، والمؤسسة الاجتماعية ، ثم البنية الطبقة . لقد كان المخيم الاطار الجغرافي - المجتمعي للعلاقات الاجتماعية . ويمتاز هذا المجتمع بطابعه الخاص « وتركيبه الاجتماعي - الاقتصادي الخاص . فمن جهة يصعب وصف المخيم بالمدينة او بالقرية او حتى بالحي الفقر . ومن جهة اخرى لا يوجد بين السكان تمايزات اجتماعية حادة . ليس في المخيم ملاك ارض او رأسمال بل جميعهم يكادون يتساوون في الفقر ، ومن يتوفر لديه رأس المال يغادر المخيم اما الميسورون نسبيا من موظفين وباعة فان التمايز بينهم وبين باقي الاهالي ليس صارخا ولا يصل ، بحكم طبيعة العلاقات ، الى التناقض « (ص ١٩) . هذا التكوين الخاص للمخيم ، لم يغير العلاقات القديمة ، التي لم تواجه ما يتحداها جذريا ، ونتيجة للشروط المعيشية القاسية ، ظلت العائلة تمثل نوعا من الضمانة والحماية الاجتماعية لأفرادها .

على صعيد اخر ، كان تحطم البنية الاجتماعية والتوزيع الجغرافي عام ١٩٤٨ يعني تنكسا طبقياً للمجتمع الفلسطيني ، وحتى في الضفة والقطاع اختل البنيان الطبقي القديم ، فلم يعد هناك طبقات فلسطينية بالمعنى التقليدي : لم يعد هناك بورجوازية فلسطينية ، « بل اصبح هناك «بورجوازيون» فلسطينيون موزعون في عدة أقطار،

لتجده قبل سنوات قليلة خلت . لقد صار لها ضرورة اجتماعية وظرفا اجتماعيا ما كان سابقا . الجهد الذي بذله الدارس لا يعني الريادة فحسب ، انه يعني كذلك الدعوة الى مواصلة الطريق نحو مزيد من التفهم لواقعنا الفلسطيني والعربي ، ونحو ارساء اسس البحث العلمي التي لا تعني بحال غير ارساء اسس البحث العلمي ، اسس العقلانية والتجديد والثورة . مراجعة ومناقشة الدراسات الميدانية ، كمثال كتابنا تتطلب دراية كاملة بمعطيات الموضوع وظروفه وشروطه . انطلق شحادة يوسف ، كما يبدو ، من السفر ، قام بالكثير من الاحصاءات والاستطلاعات حتى استطاع الوصول الى جملة حقائق ، مما اضطره الى صرف وقت اضافي كان وفره لو ان الطريق كانت مبهدة امامه . هذا يؤكد ضرورة الاطلاع على معلوماته ، الموضوعية تحت تصرف الباحثين في مكتبة مركز الابحاث ببيروت ، كما قال الدكتور انيس صايغ المدير العام لمركز الابحاث ، في تمهيد للدراسة .

وبالرغم من الجهد الكبير الذي بذله ، والملاحظ في سياق هذه الدراسة الصغيرة (حوالي مائة صفحة عدا الجداول في الملاحق) ، فانه يؤكد بتواضع كبير : لم يحاول البحث تقديم دراسة وصفية للحركة النقايبية ، « بل عمد الى تسجيل بعض الملاحظات النقدية انطلاقا من تصور للتنظيم الجماهيري الثوري السذي يتناسب مع مهمات النهوض بواقع الحياة الفلسطينية » (ص ١١ - ١٢) .

في الفصل الاول « بعض خصائص الواقع الفلسطيني » ، يبذل الباحث جهدا اضافيا واضحا ، لدراسة الآثار الاجتماعية لنكبة ١٩٤٨ على المجتمع الفلسطيني . ان اكبر تأثير لنكبة ١٩٤٨ ، يمكن تحديده في تحطم البنية الاجتماعية والتوزيع الجغرافي ، اي انعدام المؤسسة السياسية الواحدة ، والبنيان الاقتصادي - الاجتماعي الواحد . لقد ولد هذا الوضع خصائص سلوكية وتنظيمية جديدة . ولقد تمثلت اهم الخصائص السلوكية الجديدة في « الانهيار الفجائي للاساس المادي للمجتمع عام ١٩٤٨ ، ثم في محاولة التخلص من الوضع المادي الجديد » (ص ١٥) ، نجم عن هذا التغير الفجائي « حدوث فجوة هائلة بين